الفصل الخامس

شرف الدّين ابن أبي عَصرُون في الميزان

أ ـ شخصية عبدالله بن أبي عصرون

ب ـ انتاج عبدالله بن أبي عصرون العلمي

ج ـ انتاج شرف الدين بن أبي عصرون الأدبي.

أ ـ شخصيته :

obeikandl.com

obeikandl.com

أ ـ شخصية عبد الله بن أبي عصرون:

لا شك في ان شخصية شرف الدين تمتعت برضى أكبر شخصيتين في الدولة الزنكية والدولة الأيوبية، أعنى بهما نور الدين محمود زنكي وصلاح الدين الأيوبي. وقد اثارت هذه الشخصية جدلاً كبيراً بين محب راغب فيها وكاره راغب عنها. ولا شك أيضاً في ان النجاح الذي لاقته في معظم الأحيان كان مدعاة لاثارة الخصوم والحاسدين.

ولعل شرف الدين بن أبي عصرون بنجاحه الكبير قد اثار حوله موجةً من الاحترام والتقدير عند جماهير المسلمين سواء في عهد نور الدين أو عهد صلاح الدين. ولكن هذا النجاح من باب آخر جلب لصاحبه المتاعب وأوجد شخصيات لا تبادله الحب بمثله. وتصور لنا المصادر والمراجع طرفاً من عداء كمال الدين الشهرزوري قاضي قضاة الشام لشرف الدين عبدالله بن أبي عصرون. فالوهراني باسلوبه الأدبي الهادف وبأدبه الرمزي يصور لنا محاكمة يوم الحساب تجري لكمال الدين الشهرزوري يتدخل فيها الوحي السماوي لحساب الشهرزوري نظراً لكرمه فيأتي قضاء الله العادل بوقوف الشهرزوري بين الجنة والنار ويحضر المقام المشهود كل يوم ويقدم ما يسيء إلى شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون بدرجة كافية لأخذه بالعقاب عندما يأتي دوره للحساب في اليوم الآخر «وقد قدم لابن أبي عصرون مقدمات ردية ما أظنه من شرها بناج»[1].

ثم يستمر الوهراني باسلوبه المتميز يصور لنا جوانب أخرى وصوراً جديدة عن هذا العداء عندما نقل لنا رسالة رمزية موجهة من الجامع الأموي بدمشق إلى شرف الدين بن أبي عصرون يشكوه فيها.

(١) الوهراني: مقامات الوهراني ومناماته ورسائله ص ٢٨.

وجاء فيها انه ذئب غدار ومن استرعى الذئب فقد ظلم بها وتتهمه بأنه اكتنز الأموال واختزلها وجمع الذخائر لنفسه واختص بها وأهمل أمور المساجد بها الموكول إليه رعايتها والانفاق عليها.

ثم تستمر الرسالة في توجيه الاتهامات إلى شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون قائلة: «من اجل هذا كانت سياحتك ولأجله طالت نياحتك وبسببه كنت تسبح تصبح حتى غبطك المسيح، لقد عجبت أيها الشيخ من محالك في ابتداء حالك ومن فساد أمرك عن آخر عمرك ومن فساد دينك وضعف يقينك [1]»

وجميع مواد هذه الرسالة طعن موجه إلى شرف الدين بن أبي عصرون في دينه وقضائه وحياته وآخرته ورحلاته وعبادته.

ومما يتفق مع المنطق السليم ان يثور شرف الدين عند استلامه مثل هذه الرسالة ويصور لنا الوهراني هذه الثورة باسلوبه المتميز قائلاً: «فلما وصل الكتاب إليه وقرأ ما قد انطوى فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس ثم أدبر واستكبر»[2] ثم لعن المساجد وبانيها وهذه عبارة لا اظن انها ستصدر من فقيه مثل ابن أبي عصرون ولكن الوهراني ذكرها ليتم المعنى الذي اراده ويصور ثورة ابن أبي عصرون وغضبه. والمهم ان عبدالله بن أبي عصرون كتب على ظهر الرسالة اشياءً غير سارة. ومن الطريف ان ننقل هذا الرد لطرافته.

«بسم الله الرحمن الرحيم، وصلت رقعتك اصلحك الله، كأنها ضربة موتور او نفثة مصدور، وتخلط فيها الهزل بالجد وتبدي غيظ الأسير على القيد وأيم الله لقد فرقت سريا وقذفت بريا وجئت شيئا فريا فاشدد من عقالك

(١) الوهراني: مقاماته ومناماته ورسائله ص ٦٧.
(٢) المصدر السابق نفسه ص ٦٨.

وتأيد في مقالك. فما شكل يذم شكله ولا كل طائر يحل أكله (وما كل بيضاء سخمه ولا كل سوداء فحمة). ولو كان لك عقل يهديك أو رأي يهديك لواريت أوراك ولسترت عوارك. أليس قد اشتهر عند الداني والقاصي بأنك قطب (ما يتم فيك) من المعاصي؟ حتى لقبوك بسوق الفسوق وميدان المروق ورحاب القحاب حتى قال فيك القائل:

تجنب دمشق (فلا تأتها) وان راقك الجامع الجامع
فسوق الفسوق به قائم وفجر الفجور به طالع

فلا جرم ان الله قطعك بالطريق وعاقبك بالحريق وجعل الميص على ابوابك والزط في قبلة محرابك وعذبك بالنيران وقرنك بأشر الجيران وجعل خطيبك أتوها دائصاً وامامك أعمى ناقصاً فلو انك البيت المعمور لهجرت او حرم مكه لما حججت فقف عند مقدارك وانظر في ايرادك واصدارك، والسلام».

ويشتم من هذا الرد بلاغة العبارة وقوة الألفاظ مع وضوح المعنى وشدة النبرة وصدقها لأنها نابعة من نفس مطعون بها فلا أقل من ان ترد بمستوى الاتهام.

ويصور الوهراني[1] المسألة بعد ذلك وموقف نور الدين منها عندما رفع الجامع الأمر إلى نور الدين زنكي الشهير بغضب حين وصله رد ابن أبي عصرون.

ويصدر الوهراني الأمر هنا على حقيقته عندما يذكر لنا موقف نور الدين زنكي من رسالة المسجد ومن شرف الدين ابن أبي عصرون فيقول: «فلما وقف الملك العادل على كتابه وتجرع كأس عتابه التفت إلى المساجد فرثى لهم

(١) الوهراني: مقامات الوهراني ومناماته ورسائله ص ٦٩.

وسدد احوالهم. ولما علم فحوى شكاياتهم وعرف كُنْهَ قضيتهم ازال عنهم ظلمهم (وأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم) ثم نظر إلى ابن أبي عصرون فانزله واعتزله وحجبه عن بابه واختزله وألقاه في سجن الصدود وخلده فيه إلى يوم الخلود وقرأ عليه ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود».

ان مجمل هذه الكتابات كما وردت على لسان الوهراني تمثل جانبا من الحقد على شرف الدين بن أبي عصرون وتبين ان للرجل اعداءً يودون العمل ضده وابعاده عن نور الدين. لأنهم يعرفون أن نور الدين المؤمن بالله إلى ابعد الحدود لا يمكن أن يترك من يهمل شأناً من شئون المسلمين في مكانه مهما علت منزلته فالحق أحق إن يتبع. ولكننا لم نسمع بمثل هذا الخلاف بين شرف الدين بن أبي عصرون ونور الدين زنكي في المصادر الأخرى المعاصرة. ولو حصل من أبن أبي عصرون شيء لذكرته ولحاول شرف الدين ان ينفي التهمة عنه ولحصل حوار مع نور الدين ولكان الاجدر بالمصادر ذكره ولكنها لم تفعل مما يدفعنا إلى الشك في مثل هذه الرواية. والمعتقد ان القصد من ورائها تصوير الخلاف الحاصل بين شرف الدين والذين يعملون ضده ليس الا.

وقد ذكر كمال الدين الشهرزوري شعرا يعرض فيه بشرف الدين عبدالله بن أبي عصرون نجتزىء منه:

يا راكباً يطوي الفلا بشِمْلة حرفٍ وخود
عرّج بمشهد كربلاء وانخ وعقِّر في الصعيد
واقرأ التحية وأدعُ يا ذا المجد والبيت المشيد
اولادك الانجاب في ارض الجزيرة كالعبيد
أوقافهم وقف على دفٍ ومزمار وعود
ومدامة خضبت بها ايدي الشُقاة إلى الزنود

ودعـي بيتـك لا يفـكـر في الجـحـيم ولا الخـلود
هو وابـن عصرون الـطويل ويوسف الـنـذل الـيهـودي
ان كان هذا ينـتـمـي حقـاً إلى الـبـيت المـشـيد
فالي يزيد إلى يزيد الى يزيد إلى يزيد[1]

ويشتم من هذا الشعـر روح العـداوة بين الـطرفـين حيث يطعن الشهرزوري بشرف الدين ويشبهه باليهود ويشنع بهذا عليه.

كانت له جولات مع شرف الدين ابن أبي عصرون وطعن به الشاعر الهجاء المقذع في هجائه واقصد به الشاعر ابن عنين فقد وجه هذا الشاعر هجـاءً مقـذعاً لشرف الدين بن أبي عصرون وإلى ولده محيي الدين محمد نجتزىء منه:

ومـا هجوت ابن عصرون أروم له فضلاً ولا نلت من فخر ولا شرف
لكن أُجـرب فيه خاطـري عبثـاً كما تجُرَّب بيض الهـنـد في الجيف

ولعـل من الهجـاء المقـذع الـذي وجهـه ابن عنـين إلى شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون اثناء مرض الأخير بالحمى ما يبرز الحقد الدفين بينهما ومنه:

لما تشـكـى ابن عصرون الىَّ حمى في سفـلـه حار فيه كل بيطار
وقـال: داءٌ عضـال قد رميت به أعيـا وقصرَّ عنـه كل مِسْـبـار
لله درك شكـرا للصـنـيعـه بي من قابسٍ شيَّط الـوجعاء بالنار[2]

إلى ان يقوُل:

---

(١) الأصفهاني: خريدة القصر قسم شعراء الشام ٢/٣٢٧.
(٢) ابن عنين: ديوانه تحقيق خليل مردم بك ص ١٩١.

يا عمـر ما وقفـة في رسم منـزلـه أنـار شوقـك فيهـا محو أثـار[1]

وقال يهجو محيي الدين ابن شرف الدين أبوسعد بن أبي عصرون وجاء الهجاء بشكل خطاب موجه إلى صلاح الدين وقد خرج معه محيي الدين للغزو والقتال. ولا بأس ان نقدم شيئاً هنا من هذه القصيدة:

صلاح الـدين يا خير الـبرايا ومـن قد عمَّ بالفضـل الـرعـايا
سمـعـت بأن محيي الـدين يغْشى الوغى والحـرب ضاريـة المنـايا
فلا تشـهـد بصفعان قتـالاً فقـوس النـدف لا تصمي الرمايا[2]

ولعل أشد انواع الهجاء تأثيراً على النفس البشرية ان تذكرها بما يعتبر نقصاً فيها مع وجوده. ومن هذا المنطلق فقد هجا ابن عنين ابن عصرون معيراً إياه بما أصابه من العمى ولزومه البيت فقال فيه عندما أصاب المسلمين الشك في ثبوت عيد الأضحى:

لا غرو أن ضاعـت الاعياد بينكم رفقـاً كأني بكم قد ضاعت الجُمَعُ
فليعجب النـاس من قومٍ يقودهم إلى الضـلالـة أعمى وهـو مُتَّبَـعُ
قد كذّبـوا ما رأوه وهـو متضـح وصـدقـوا ما رواه وهـو ممتنـعُ[3]

وإلى هنا نكون قد رسمنا ما يوضح الجانب الحاقد على شرف الدين ابن أبي عصرون المتمثل فيما قدمناه من رسائل طعن وأبيات هجاء قالها ونظمها الحاقدون على شرف الدين الساعون إلى ابعاده عن نور الدين زنكي وصلاح الدين فيما بعد، ولكن ابن أبي عصرون لم يكن شخصية عادية بل متميزة عن غيرها قوية في مواطن الضعْف فرأيناه كيف وقف منفرداً أمام كل الفقهاء في

---

(١) المصدر السابق ذكره ص ١٩٢.
(٢) ابن عنين: ديوانه ص ١٩٢ المصدر السابق ذكره.
(٣) المصدر السابق ذكره ص ١٩٣.

الوقت الذي كان فيه من المفروض انهزامه ولكنه ثبت وبقي في منصب قاضي القضاة رغم انف الحاقدين.

وما دمنا قد قدمنا الجانب المظلم من شخصية ابن أبي عصرون إن جاز لنا التعبير بقي ان نقدم الجانب المشرق من هذه الشخصية وبمعنى ادق ما دمنا ذكرنا طرفاً من طعن الحاقدين بشخصية ابن أبي عصرون علينا ان نقدم طرفاً من مدح المادحين في هذه الشخصية.

فلو امعنا النظر في المصادر والمراجع التي أرَّخت وترجمت لشرف الدين لظهر لنا هذا بجلاء. فابن الدهان صديق شرف الدين وتلميذه الوفي وقف موقفاً وديا من استاذه ولم ينسه وقت الشدة والضيق. فاستغل ابن الدهان كل فرصة تمر في حياة استاذه ليقوم بما يمليه عليه الواجب فاستغل فرصة وفاة احد ابناء شرف الدين في حياته واعني شهاب الدين ابن أبي عصرون فصاغ في هذا الموقف شعرا مؤثرا ومعبرا في نفس الوقت منه:

يأبى التأسي انهاء الأسى الجلدا ... فان نعي رواهُ للعزاء ردا
أذكى بقلبي نارا لا خمود لها ... قول النعاة شهاب الدين قد خمدا
فالعين بعدك عين والفؤاد لظىً ... نارٌ فلا رقأت دمعاً ولا بردا
من للفتاوي اذا أعيت غوامضها ... يحلُّ مُشكلها المستصعَبُ العُقَّدا
من للخصوم اذا أبدت شقاشقها ... ومال جامحها في غيِّه لدَدَا[1]

وهي طويلة ومنها:

لمن أُبقي دموعي بعد فرقته ... والدهر لم يُبْق لي من بعده جلدا!
صلى عليه الله العرش في الملأ الأعلى ووالى له من لطفه مددا[2]

(١) ابن الدهان: ديوانه ص ١٣٨.

(٢) المصدر السابق ذكره ص ١٤١ والقصيدة طويلة ص ١٣٨ ـ ١٤١.

ولم ينس ابن الدهان استاذه وصديقه شرف الدين ابا سعد فقد مدحه بقصيدة طويلة منها:

فلا وصْلها يبدو فتبلى بلا بلىً ... ولا لي صبرٌ منجدٌ فأخونها
نحيلة جفن العين من غير علّةٍ ... كذاك سيوف الهند تبلى جفونها
أرى سودها أمضى وأفتك في الحشا ... فما بال أنقاها بياضاً ثمينها

إلى ان يقول:

فبالشرف الأعلى هواها وشكرها ... ندى شرف الدين بن عصرون دينها
متى قصدتْ في طرْقها دون عزةٍ ... فلا انفرجت عن سهل أمرٍ حزونها
وان طمعتْ من غيرْة في نوالِهِ ... فلا صدقت فيما رَجَتْهُ ظنونها[1]

ويجب ان لا ننسى في هذا المجال علاقة شرف الدين ابن أبي عصرون بالعماد الأصفهاني الكاتب. فقد ظهرت الشتويات الشعرية، وهي القصائد الأخوانية التي يتبادلها الشعراء للتسلية طيلة ايام الشتاء الطويلة لشغل أوقات الفراغ بما يفيد والترويح عن النفس، وظهر مثل هذا النوع في بلاد الشام، وجرى منه طرفٌ بين شرف الدين ابن أبي عصرون والعماد الأصفهاني الكاتب نجتزىء منه:

أيا شرف الدين ان الشتا ... بكافاته كف آفاته
وكفك من كرم كافها ... لقد كفلت لي بكافاته
وانك من عرفه شكرنا ... غدا عاجزاً عن مكافاته[2]

---

(١) ابن الدهان: ديوانه ص ١٠٧ ـ ١٠٨ مصدر سابق.
(٢) الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء سوريا ٢/٣٥٢ ذكر بيتاً واحداً فقط.
أبوشامة: كتاب الروضتين ١/١٤٩.
عمر موسى باشا: الادب في بلاد الشام ص ٥٢٩.

فلما استلم شرف الدين هذه المقطوعة الشعرية، كتب في الجواب إلى الأصفهاني:

اذا ما الشتاء وامطاره ... عن الخير حابسة مانعة
وكافاته الست اعطيتها ... وحاشاك من كافه الرابعة
وكف المهانة والاحتشام ... لكفى عن بره مانعة
وهمة كل كريم النجار ... بميسور أحبابه قانعة
ونفسي في عذري لديه ... جعلتُ الفداء له طامعة
وشوقي إلى قربه زائدٌ ... ومعذرتي ان جفا واسعة[1]

كان هذا عام ٥٦٣هـ في حلب عندما أصبح عماد الدين الأصفهاني كاتباً لنور الدين محمود زنكي. وفي احد المرات حضر الأصفهاني إلى طرف شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون وكتب إليه:

أيا من له همةٌ في العلى ... لذروتها أبداً فارعة
ومن كفه ديمة ما تزا ... ل بالعرف هامية هامعة
وللفضل في سوق أفضاله ... بضائع نافقة ناقعة
وهل كابن عصرون في عصرنا ... إمام أدلته قاطعة؟[2]
فحبرٌ فوائده جمه ... بحرٌ موارده واسعة
أيا شرف الدين شرفتني ... باهداء رائقة رائعة
أطعت اوامرك السامیات ... وما برحتْ همتي طائعة
أرى كل جارحة لي تودّ ... لو أنها اذن سامعة
واما الشتاء وكافاته ... وكفك عن كافه الرابعة

---

(١) الأصفهاني: خريدة القصر، شعراء الشام ٢/٣٥٣.
أبوشامة: كتاب الروضتين ١/١٤٩.
(٢) أبوشامة: كتاب الروضتين المصدر السابق الذكر.

فنفسي مُنزهة بالعفا ف عنها وفي غيرها طامعة
وماذا تطيق اذا لم تكن بميسور سيدنا قانعة؟[1]

وبعد فان المصادر المتوفرة في اليد تجمع على أن ابن أبي عصرون شخصية متميزة لها سماتها الفريدة فقد وصفه ابن تغري بردي[2] بانه كان «اماماً فاضلاً مصنفاً» ووصفه السبكي[3] صاحب طبقات الشافعية بقوله: «نزيل دمشق وقاضي القضاة بها وعالمها ورئيسها». وقال عنه موفق الدين ابن قدامة المقدسي[4]: كان إمام اصحاب الشافعي في عصره ونعته ابن الصلاح بانه من افقه أهل عصره وإليه المنتهى في الفتاوي والاحكام[5].

واما العماد الأصفهاني[6] احد تلاميذه الكثر وصديقه المخلص وشريكه في الحكم والادارة أيام نور الدين وصلاح الدين فوصفه بقوله: «حجة الإسلام مفتي العراق والشام شيخ العلم العلامة وبفتياه توطدت للشرع الدعامة وله الفخار والفخامة، وليس في عصرنا من أتقن مذهب الشافعي عنه مثله وقد أشرق في الافاق فضله وصنف في المذهب تصانيف مفيدة قواعدها في العلم مهيدة».

ولا أظن انه بقي مزيد فضل يضاف إلى قول الأصفهاني. ومع ان فيه شيئاً من المبالغة كما يبدو الا انه يظل الاساس المقبول للتعامل من خلاله مع شخصية شرف الدين أبي سعد عبدالله بن أبي عصرون.

(١) المصدر السابق ذكره ١/ ١٥٠.
(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/ ١٠٩.
(٣) السبكي: طبقات الشافعية ٧/ ١٣٢.
(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٤/ ٢٨٣.
بدران: منادمة الأطلال ص ١٣٢.
(٥) المصدران السابقان.
(٦) الأصفهاني: خريدة القصر، شعراء الشام ٢/ ٣٥١.

ب ـ انتاج ابن أبي عصرون العلمي:

ومما يتصل بشخصية ابن أبي عصرون في هذا المجال الجانب العلمي والانتاج الذي قدمه في ميادين اختصاصه. لذا يجب علينا ان نعرج على هذه المؤلفات لتكون دليلاً على علو كعبه وبرهاناً على ما قدمنا من صورة مشرقة لشرف الدين عبدالله بن أبي عصرون.

فالمصادر المتوفرة لدينا تمدنا بمصنفات كثرة صنفها شرف الدين نذكر منها:

«صفوة المذهب من نهاية المطلب» وهو في سبع مجلدات، «الانتصار» في اربع مجلدات، «المرشد» في مجلدين، «الذريعة في معرفة الشريعة» مجلد. «التيسير» في الخلاف في أربع مجلدات. «مآخذ النظر» و«مختصر الفرائض» و«الارشاد المغرب في نصرة المذهب» ولم يكمله وذهب فيما ذهب له بحلب[1].

وله مؤلفات أخرى منها: «التنبيه في معرفة الأحكام»، «فوائد المهذب» في مجلدين[2]. و«الموافق والمخالف»[3]، و«فوائد المنذري» في مجلدين. وجمع

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/٥٤.

(٢) الصفدي: نكت الهميان ص ١٨٥.

(٣) السبكي: طبقات الشافعية ٧/١٣٣.
الاسنوي: وذكر الانتصار والمرشد وفوائد المهذب والتنبيه فقط.
ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/٣٣٤ ويسمى ابن كثير: الانتصار «بالانتصاف».
العيني: عقد الجمان ميكروفيلم بجامعة الكويت جـ/ ١٣ رقم ٦٠٢ ص ٧٦ ـ ٧٧.
ابن طولون: قضاة دمشق ص ٥٠ وسمي الانتصار بالانتصاف.
ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٤/٢٨٣. وذكر صفوة المذهب في نهاية المطلب والانتصار.
الطباخ الحلبي: اعلام النبلاء ٤/٢٧٩.

جزءاً في جواز قضاء الأعمى[1]. وأضاف البغدادي[2] في «هدية العارفين» فتاوي ومسلسلات في الحديث.

جـ ـ انتاج شرف الدين الأدبي:

وإلى جانب ما اشتهر به شرف الدين من علوم الفقه والأصول والخلاف والفتاوي والقضاء يجب ان نشير إلى الجانب الأدبي من حياة ابن أبي عصرون فقد كان شاعراً أديباً اورد له العماد الأصفهاني وغيره مقطوعات شعرية كثيرة تنم عن احساس متدفق وخيال خصب واسع ونفس مجربة عركتها الحياة. واليك الواناً من أشعاره:

ذكر العماد الأصفهاني تلميذ شرف الدين وصديقه انه كان يحضر الى شرف الدين ويقرأ عليه مصنفاته خاصة المصنفات المذهبية واستفاد منه واخذ عنه ويقول الأصفهاني: وما اتفق لي ان استمليت شيئاً من نظمه وذلك راجع لانصرافي الى الاستفادة من علومه الأخرى ومصنفاته الفذة «فانَّ زمانه اعز واحسانه لعطف الطالب أهز، واستغنيت عن التماس شعره بما انشدنيه الفقيه الشهاب محمد بن يوسف الغزنوي مما استملاه منه» ومن هنا يبدو لنا ان الشهاب محمد هو احد تلاميذ شرف الدين ابن أبي عصرون.

ومن جملة هذه الاشعار نقتطف:

أيا تاج الأئمة والمرجى ... لكشف المشكلات من الأمور
اذا ما الدار سهم ضاق فيها ... مع الافراز من نفع يسير
وباقيها فسهم ليس يخلو ... مع الافراز من نفع كبير
فان نبع الكثير فهل مكان ... لشفعة ذلك الجزء الحقير

(١) بدران: منادمة الأطلال ص ١٣٣.
(٢) البغدادي: هدية العارفين ١/٤٥٧ ـ ٤٥٨.

وهـل تجري ولا اجـبـار فيهـا مع الحمّام والـبـير الـصـغـير[1]

ولم يسع شرف الـدين بن أبي عصرون الا ان يجيب الأصفهاني على قصيدته بداهة وارتجالاً وذلك لسرعة خاطره وحضور ذهنه وتمكنه من أساليب اللغة وملكة النظم والخيال الواسع والالفاظ الخصبة الجزلة المعاني فقال:

أرى الشخص الـذي لا نفـع فيه كبـيراً كحمام صغـير
وفي الـكـل الخـلاف وان رأيي ليثبـت شفـعـة الـسهم الحقـير
وتـرهـفـه المضرَّة حين باعـوا فما غير الـتـشـفـع من مجير[2]

وسئل شرف الدين عن البيع شعرا:

اذا ما الـبـيع كان بغـير عَقْـد وقـد سكن الـتراضي في القلوب
فهـل من مأتـم يخشـى اذا ما أعـاد الخـلق علاّم الـغـيوب
أجـب عما سئـلت أتيت اجـراً من الـرحمن كشّاف الكـروب

فأجاب شرف الدين كعادته ارتجالا شعرا:

اذا وجـد الـتراضي في الـقلوب ولا لفظ لداع أو مجيب
فلا بيع ولا يخشـى قصـاص عليه عنـد علاّم الـغـيوب
فخـذ هذا الجـواب عن ارتجالٍ تنـال به مرادك عن قريب
ثواب الله أرجـو في جوابي وحـسبـي بالمهيمن من مُثيب
لعـبـدالله ناظـمـهـا ذنـوب وعـفـو الله محّاء الـذنـوب[3]

ولم يقتصر شعر شرف الدين على هذا اللون فقط والذي هو اشبه بالنظم منه بالشعر بل تطرق الى لون آخر فطرق باب الحكمة، ومن هذا القبيل ما

---

(١) الأصفهاني: خريدة القصر، قسم الشام، ٢/٣٥٤.
(٢) الأصفهاني: خريدة القصر، قسم الشام ٢/٣٥٥.
(٣) المصدر السابق ذكره.

رواه الأصفهاني، ومنه:

كل جمع إلى الشتات يصير ... أي صفو ما شابه تكديرُ
أنت في اللهو والاماني مقيمٌ ... والمنايا في كل وقت تسيرُ
والذي غرّه بلوغ الأماني ... بسرابٍ وخُلَّب مغرور
ويك يا نفسي اخلصي ان ربي ... بالذي أخفت الصدور بصيرُ[1]

ومنه:

أومل وصلاً من حبيب وانني ... على كمدٍ عما قليل أُفارقه
تجاري بنا خيل الحمام كأنما ... يسابقني نحو الردى وأسابقه
فيا ليتنا متنا معاً ثم لم يذُق ... مرارة فقدي لا ولا أنا ذائقه[2]

واورد له الأصفهاني عدة مقطوعات في معان منوعة منها:

أؤمل ان أحيا وفي كل ساعةٍ ... تمر بي الموتى تهز نعوشها
وهل أنا الا مثلهم غير ان لي ... بقايا ليال في الزمان أعيشها[3]

---

(١) الأصفهاني: خريدة القصر قسم الشام ٢/٣٥٤.
الاسنوي: طبقات الشافعية ٢/١٩٥ لم يذكر البيت الثالث وذكر الرابع كالتالي:
ويك يا نفس اخلصي ان ربي ... بكل ما اخفيته لبصير
ابن تغري بردي (أبوالمحاسن): النجوم الزاهرة ٦/١١٠ روى البيتين الأوليين فقط.

(٢) الأصفهاني: الخريدة قسم الشام ٢/٣٥٥ المصدر السابق نفسه.
ابن خلكان: وفيات الأعيان وقد روى البيت الأول هكذا.
اؤمل وصلاً من حبيب وانني ... على ثقة عما قليل أفارقه
الصفدي: نكت الهميان ص ١٨٦.
الطباخ الحلبي: اعلام النبلاء ٤/٢٨٠ نقل رواية ابن خلكان.

(٣) الأصفهاني: الخريدة/ قسم الشام ٢/٣٥٧.
ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/٥٥.

ومنها:

يا سائلي كيف حالي بعد فرقته ... حاشاك مما بقلبي من تنائيكا
قد أقسم الدمع لا يجفو الجفون أسىً ... والنوم لا زارها حتى ألاقيكا[1]

ومنها:

وما الدهر الا ما مضى وهو فائت ... وما سوف يأتي وهو غير مُحَصَّلِ
وعيشك فيما أنت فيه وانه ... زمان الفتى من مجمل ومفصَّلِ[2]

ومنها:

أمستخبري عن حنيني إليه ... وعن زفراتي وفرْط اشتياقي
لك الخير ان بقلبي إليك ... ظمأ لا يُرويه غير التلاقي[3]

ومنها:

كنت اذا كنت عدياً ... لي خلا وناديا
ثم اثريت وأعرضت ولم ... ترْع قديما

الصفدي: نكت الهميان ص ١٨٦.
الأسنوي: طبقات الشافعية ٢/١٩٥.
العيني: عقد الجمان مخطوط ميكروفيلم جامعة الكويت جـ/١٣ ص ٧٦ - ٧٧.
الحسيني (المصنف): طبقات الشافعية ص ٨١.
الطباخ الحلبي: المرجع السابق نفسه.
(١) الأصفهاني: الخريدة قسم الشام ٢/٣٥٦ مصدر سابق.
ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/٥٥ مصدر سابق.
الصفدي: نكت الهميان ص ١٨٦ مصدر سابق.
(٢) الأصفهاني وابن خلكان: المصدران السابقان نفسهما.
(٣) الأصفهاني: خريدة القصر/ قسم الشام ٢/٣٥٦ المصدر السابق.

ردك الله إليَّ ودي مديونـا غريماً[1]

وهكذا نرى ان شخصية شرف الدين ابن أبي عصرون من الشخصيات المتميزة فهي متكـاملة الجـوانب لها اثرها في مجال القضاء والفتيا والسياسة والادارة والدبلوماسية والسفارة تتمتع بقدر كاف من العلم والادب أهَّلها إلى ان تتسلم أرقى المنـاصب وارفعهـا وهي قضـاء القضاة والسفارة ومشيخة الشافعية في عصرها.

(١) المصدر السابق ذكره ٢/٣٥٧.

obeikandl.com